

شعرية تأنيث المكان في شعر عثمان لوصيف

Poetic feminization of place in Athmane Loucif poetry

مريم محراب^{*1}¹ جامعة الحاج لخضر باتنة 01 (الجزائر)، مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة، meriem.mehrab@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/20 تاريخ القبول: 2022/12/28 تاريخ النشر: 2022/12/31

ملخص:

يعالج هذا المقال قضية توظيف المدن والأمكنة في القصائد وما دلالتها وعلاقتها الجغرافية والنفسية والروحية، وذلك من خلال اختيار أحد أعمدة الشعر العربي المعاصر، الشاعر الجزائري الحر عثمان لوصيف رحمه الله الذي لطالما تماهى إلى حد الذوبان مع كثير من الأمكنة الجزائرية والعربية، نجدها متجلية في كثير من دواوينه الشعرية أمثال: ديوان قالت الوردة، ديوان الكتابة بالنار، وديوان شبق الياسمين وغيرها، محاولين بذلك الكشف عن سر توظيف الأمكنة في مختلف أعماله الشعرية؛ وكذا رصد العلاقة القائمة بين المكان والمرأة التي صورها الشاعر في أحسن الصور ناشدا للجمال والسكينة مما جعلته يؤنث المكان، فما هي العلاقة القائمة بين ذات الشاعر وسر تأنيثه للمكان؟

كلمات مفتاحية: الشعرية، المكان، تأنيث المكان، الوطن، عثمان لوصيف.

Abstract:

This article deals with the issue of the employment of cities and places in poems, their importance and their geographical, psychological and spiritual relations, by choosing one of the pillars of contemporary Arabic poetry. The Algerian poet athmane loucif, may God have mercy on him, who is known for his fusion with many Algerian and Arab places, we find it evident in his various poetry collections, trying to uncover the secret of

* المؤلف المرسل.

employing places in them, as well as monitoring the relationship between the place and the woman portrayed by the poet in the pictures, which made the place feminine.

Keywords: Poeticism; place; feminization of place; homeland; athmane loucife.

1. مقدمة:

اهتم الشعراء العرب منذ القدم بعنصر المكان لما يلعبه من دور بارز في حياة الإنسان وباقي الكائنات الحية، كما جادت أقلام العلماء والفلاسفة في تفسير مفهوم المكان حتى في عصرنا هذا، نتيجة علاقته الدائمة بالمشاعر الإنسانية وما يحمله من روابط الألفة والاستقرار والسكينة والإحساس بالحرية. وبناء عليه يعتبر المكان مكون أساسي لأي عمل أدبي نستشفه في مختلف النصوص الأدبية والعربية عامة، وكان للشعر الجزائري المعاصر حضور بارز في وصف جماليات المكان وكثرة تعدد دلالاته ورموزه، ومنه تسعى دراستنا إلى الاهتمام بجانب معين لعنصر المكان ألا وهو سر تأنيث المكان في دواوين الشاعر الراحل الجزائري عثمان لوصيف واستعماله لصيغة المرأة في التعبير عن قصائده للوطن والمكان. وكل ورقة بحثية تستلزم الإجابة عن عدة تساؤلات نذكر منها: كيف وظف الشاعر الجزائري عثمان لوصيف المكان في دواوينه المختلفة؟ ما هي رموز ودلالات الأمكنة في شعر عثمان لوصيف؟ هل كانت علاقة الشاعر بوطنه كعلاقة روحه بجسده؟ ثم ما سبب حضور المرأة في المكان عند الشاعر وما سبب إصرار عثمان لوصيف على تأنيث المكان؟ هل اتبع منهج الشعراء الصوفية في تأنيث المكان إتباعاً للشيخ الكبير ابن عربي حينما أشاد بفضل المرأة وبسر أنوثة المكان في رسالته الشهيرة "لا يعول عليه"؟ وما علاقة الشعرية بالمكان؟

2. الشعرية والمكان:

تعد الشعرية من بين المصطلحات التي لقيت اهتماماً من قبل النقاد والباحثين في القدم والحديث ولقد صعب عليهم تحديد مفهوم جامع وشامل لها وخاص بها، نتيجة تصادمها مع عدة رؤى وأوجه نقدية وأخرى لغوية لسانية، وكما هو معروف فأولى بوادر الشعرية بدأت مع الفيلسوف اليوناني أرسطو في كتابه "فن الشعر" لتواصل الأبحاث والدراسات اللاحقة في تفسير قضايا الشعرية ومجالاتها، وإن من أهداف وأسباب ظهور الشعرية منها محاولة إرساء قوانين للخطاب الأدبي وكذا استنطاقها للنصوص، لما عجزت

عنه البلاغة القديمة على تسيير النصوص أتت الشعرية تبحث عن سبل أخرى تفك طلاسم هذه النصوص الأدبية، كما أن الأدب عانى كثيرا من التهميش من قبل بعض النقاد وأصحاب المناهج السياقية فكان شغلهم الشاغل تحقيق نتائج خاصة بهم تخدمهم ولا تخدم الأدب، إذ لم ينظر في بنائه وتراكيبه وجمالياته بقدر ما ينظر في علاقته بالتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع، فمثلا علماء النفس عند تناولهم للنص الأدبي ينظرون إليه على أساس أنه وثيقة نفسية لذات الإنسان وما يطرأ عليها، وليس الهدف منهم دراسة الأدب وجمالياته كذلك نسقط هذا الرأي على المنهج التاريخي والاجتماعي وغيرها من المناهج التي تهتم بما يحيط بالنص وليس باطنه، ولكن بعد مجيء أصحاب المناهج اللسانية تفتنوا لهذا الأمر واعتنوا بالنص وجعلوه بنية مغلقة تهتم به داخليا ولا تعنى بسياقاته الخارجية ولهذا أنشئوا ما يسمى بمصطلح الشعرية، ومنه يقول تزفيتان تودوروف: "وجاءت الشعرية فوضعت حدا للتوازي القائم، على هذا النحو بين التأويل والعلم في حقل الدراسات الأدبية، وهي بخلاف تأويل الأعمال النوعية، لا تسعى إلى تسمية المعنى بل إلى معرفة القوانين العامة التي تنظم ولادة كل عمل، ولكنها بخلاف هذه العلوم التي هي علم النفس وعلم الاجتماع... إلخ، تبحث عن هذه القوانين داخل الأدب ذاته، فالشعرية إذن مقارنة للأدب مجردة وباطنية في الآن نفسه." (تودوروف، 1990، صفحة 23)، ومن خلال هذا القول فإن الشعرية جاءت لتركز على أهم القوانين التي ساهمت في بناء أي عمل أدبي، كذلك ساهم الشكلاونيوس الروس في التنظير للأدب والخروج به من بؤرة الدراسات النقدية القديمة "ومن هنا عملوا على تحويل دارسي الأدب وطلابه من اهتماماتهم بعلم النفس، أو علم الاجتماع أو التاريخ، إلى تثبيت حقيقة الدراسة الأدبية وعلى الخصوص طبيعة هذه الدراسة وتميزها أي تميز الوجود المستقل الذي لها مع تحديد موضوعه." (بن ذريل، 2000، صفحة 26)، وصفوة القول فإن "الشعرية poetics تشكل على اعتبار أنها علم قديم حديث محورا علميا يعتني بالكشف عن الاستخدام الجمالي للغة، وقد تنوع المفهوم بتنوع المصطلح، وإن كان المعنى العام للشعرية يجري في إطار البحث عن القوانين العلمية التي تحكم العملية الإبداعية أو الإبداع بعامة" (عزيز صالح، 1971، صفحة 13). وإن الذي يهمنا نحن في أوراقنا البحثية هذه علاقة الشعرية بالمكان وكيف وظف الشاعر عثمان لوصيف شعرية تأنيث الأمكنة في قصائده؟ وقبل ذلك نحاول إبراز أهمية وقيمة المكان بالنسبة للإنسان أو أي أديب.

1.2 مفهوم المكان:

_لغة: جاء في لسان العرب لابن منظور: "المكان، الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع" (ابن منظور، 1999، صفحة 414)، وجاء في مادة كون: "والمكانة والمنزلة، وفلان مكين عند فلان بين المكانة، والمكانة: الموضع" (ابن منظور، 1999، صفحة 365)، ومن هنا يتبين من خلال قول ابن منظور أن المكان جاء بمعنى الموضع والمكانة أي المنزل. ويؤكد قوله هذا ما جاء في كتاب الله عز وجل بمعنى الموضع: *وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا* (سورة مريم، الآية 16)، كما جاء في القرآن الكريم بمعنى المنزل أيضا لقوله تعالى: *وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا* (سورة مريم، الآية 57).

_اصطلاحاً: تقول اعتدال عثمان: "المكان مساحة ذات أبعاد هندسية أو طبوغرافية تحكمها المقاييس والحجوم، ويتكون من مواد" (عثمان، 1986، صفحة 76)، ومن خلال قولها هذا فإنها نظرت للمكان من الناحية الجغرافية، وبالرغم من العناية الفائقة لعنصر المكان من قبل الفلاسفة كأفلاطون وأرسطو والفارابي والكندي وغيرهم كثير إلا أنهم ما زالوا يفتقرون إلى توضيح له، حتى جاء الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الذي أعطى مفهوماً جديداً ومغايراً للمكان بوصفه ظاهرة إبداعية، حيث قال: "المكان الذي ينجذب نحوه الخيال لا يمكن أن يكون مكاناً لا مبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، إننا ننجذب نحوه لأنه يكتف الوجود في حدود تتسم بالحماية" (باشلار، 1984، صفحة 31)، ومن خلال نظرة غاستون باشلار للمكان نجد أن المكان مرتبط بالفن والإبداع، بل وجزء لا يتجزأ من العمل الفني، فالمكان لا يتداخل مع الأبعاد الفلسفية والهندسية والفيزيائية فحسب بل يحمل أبعاداً جمالية وفنية نجدها في كثير من النصوص الأدبية.

2.2 أهمية المكان:

بما أن المكان شمل جميع مناحي الحياة وشغل الكثير من الفنون الأدبية من شعر ورواية وقصص ومسرح وغيرها حمل أبعاد كثيرة وأهمية عظيمة نذكر منها:

➤ المكان ذو طابع قدسي كالمساجد والمعابد.

➤ المكان ذو طابع تاريخي كالآثار والعمران والبنائيات.

➤ المكان ذو طابع نفسي فيه ندرك فضل الانتماء إلى الوطن، وارتباطه بذكرياتنا وما يولده من مشاعر الشوق والحنين.

➤ المكان ذو طابع جغرافي كالطبيعة والكون.

➤ المكان ذو طابع جمالي ويتجلى ذلك في النصوص الأدبية شعرا ونثرا.

ومن هنا نخلص أن الشعرية لها علاقة بالمكان، فهي من تكسب المكان جمالية خاصة تمنحه القدرة على التأثير في النص والمتلقي، وتنقله من المستوى الفيزيائي والجغرافي إلى مستوى تخيلي تبرزه الألفاظ والكلمات التي ينتجها الخيال الأدبي.

3. صورة المرأة في شعر عثمان لوصيف:

حظيت المرأة باهتمام كبير من قبل الشعراء والأدباء على مر العصور فكثير الحديث عنها وتعدد وصف محاسنها والتغزل بها، فكانت المرأة مصدر إلهام الكثير من الشعراء وإذا عدنا إلى العصور الأولى لأدبنا العربي في عصر ما قبل الإسلام. لوجدنا استحضار الشعراء للمرأة في جل قصائدهم ومقدماتهم كالمقدمات الطللية والغزلية والتشبيب بها ووصفهم لرحلة الظغائن في الهودج وغيرها، ولقد حاول النقاد تفسير هذا الاستحضار للمرأة مثل ابن قتيبة حيث يقول: "وصل النسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق، وفطر الصبابة والشوق.. ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعى إليه إصغاء الأسماء، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب" (عطوان، 1970، صفحة 216)، ومن خلال قوله هذا نرى أن ابن قتيبة فسر حضور المرأة في مقدمات قصائد شعراء الجاهلية سببه ميل القلوب في التغزل بالمرأة، لهذا كان الشاعر يصف المرأة في كل مرة حتى أصبحت عادة تجرى عليها أشكال القصائد، في حين يرى المستشرق الألماني فالتر براونه عكس ذلك حيث يقول: "أن قطع النسيب التي تطلعنا في صدور القصائد الجاهلية، ليست إلا غاية أبعد منها وإنما غاية في نفسها" (عطوان، 1970، صفحة 216)، أي أن الشعراء يوظفون التشبيب والنسيب لغاية في أنفسهم وصدقا لحبهم للمرأة وإخلاصا لمشاعرهم لها، ومن خلال تتبعنا لقصائد العرب قديما وجدنا أن الشعراء وظيفوا صفات المرأة الجسدية بكثرة على غرار الصفات الخلقية وهذا ما اختلف فيه الشعراء المحدثين حيث أصبح استحضار المرأة في قصائدهم يرمز إلى رموز عدة ودلالات مختلفة، مثل الشعراء الصوفية الذين ربطوا التغزل بالمرأة مقياسا للتغزل بالذات الإلهية، فعدت المرأة من أهم الرموز الصوفية المقدسة، ومنه سنحاول تتبع صور المرأة في دواوين الشاعر عثمان لوصيف وعلاقتها بالمكان.

1.3 المرأة الأرض:

تغنى الشاعر في كثير من قصائده بالأرض وخيراتها وتناصها مع المرأة يطلب من خلالها السكينة وينشد الجمال، كما ينشد احتواء الأرض والمكان الذي يربطه باحتواء المرأة للإنسان لما تحمله من دلالات للاحتواء فهي: الأم، والزوجة، والحبيبة والأخت، حيث يقول في قصيدة السنابل:

نحن طوعنا لها الريح

زرعنا البرق

أرسلنا السحاب

ومنحناها بريق الدمع في ليل الحداد

وغدا أطفالنا يأتون

من ليل المخاضات ومن جرح الخراب

يمثلون الأرض عشقا

ويغنون سنى الشمس وأعياد الحصاد. (لوصيف، 1988، صفحة 18)

فهو من خلال أبياته هذه يبين الصيغ التي تتماشى مع المرأة (لها، منحناها) ويربطها بالأرض وبمواسم الحصاد وفرح الأطفال بها.

ويقول في قصيدة أنبياء وشياطين:

النبون استماتوا فيك يا أرض العذاب

فيك يا أرض العذاب

عشوا فوق ثراك

نصبوا فيك الشراك

فيك يا أرض العذاب. (لوصيف، 1988، صفحة 31)

توحي لنا هذه الأبيات حزن الشاعر على الأرض وما أصابها من عذاب ودمار وموت، فنجد الشاعر من خلال قصائده تارة يبين فرحه بها وتارة حزنه عليها، وهذه هي العلاقة التكاملية بين الذات الشاعرة والأرض.

2.3 المرأة الوطن/المدينة:

إن المتتبع لقصائد عثمان لوصيف في دواوينه المختلفة يجد حضور صفات المرأة متجسدة في وصف جمال المدن والوطن، ومثال ذلك ما نراه في قصيدة وهران التي استلهم كلماتها من جمال المرأة حيث يقول:

تذكرت بابل، شيراز أندلسا

مصر والشام... ولكن سحرك أقوى

كل الظباء وكل الجنائن

كل المفاتن... لكن سحرك أقوى

لماذا أغني؟ وماذا أقول؟

وهل يملك المتصوف في حضرة الحق

غير الفناء... وغير الدهول؟

آه وهران

نابتة في ضلوع الصخر

نابتة في جذور العصور

تهبين نحو النجوم البعيدة ومحفوفة بالتهاول

آه تهبين... أي نداء خفي تغلغل بين حناياك؟

أية خرافية أيقظت فيك هذا الجنون السديمي. (لوصيف، ديوان براءة شعر، 1997، صفحة 56).

ومن هذه الأبيات نرى أن الشاعر تغنى بجمال وسحر مدينة وهران معددا الأماكن التاريخية العريقة كمصر والشام، وشيراز وأندلس، وأن هذه المدن لا تضاهي جمال مدينة وهران، فهو من خلال وصفه لمدينة وهران كأنه يصف مكان تعيش فيه الحياة وبه حركة حسية وشعورية وليس جمادا أي مثل البشر تماما، وهنا تبرز شعرية الشاعر في وصف المكان إذ جمالية مدينة وهران تتجلى في إكسابها أبعادا رمزية ودلالية توحى بصفات البشر أي المرأة/الأنثى، ولأن "الرمز الشعري مرتبط كل الارتباط بالتجربة الشعورية التي يعانيتها الشاعر، والتي تمنح الأشياء مغزى" (إسماعيل، دت، صفحة 198).

وواصل الشاعر في موضع آخر وقصيدة أخرى تبدو على علاقة بالتميز بصفات وجمال المرأة في قصيدة الأوراس حيث يقول:

هاموا بها.. فالريح لاهثة

في دربها والطير والشجر

والأنبياء يسبحون لها

وتحفها الآيات والعبر

هبطت من الأوراس فارتعدت

منها الدنى وتضامن القدر

ومشت على درب اللظى فمشى

معها الرصاص وحلق الشرر

أنا أول العشاق همت بها

في العاصفات.. وهامت البشر

عانقتها فوق اللهيب.. وفي

رحم الدخان تكور القمر

ومنحتها قلبي وقافيتي

ومشيت نحو الله أستعر. (لوصيف، ديوان شبق الياسمين، 1986، صفحة 87، 88)

ومن هنا نرى أن الشاعر عثمان لوصيف استحضّر جبال الأوراس وتغنى بجمالها نظراً لأهمية مدينة الأوراس ومكانتها، فهي الحاضنة للثورة التحريرية ورمز للبطولة والقوة والحرية والجهاد، ومن خلال المفردات التي وظفها في القصيدة (الهيام، العشق، العناق منحها قلبه) نلاحظ أنها صفات يمنحها الرجل للمرأة التي يحبها وهنا صور المكان على أنه إنسان حي ويملك روحاً كتب فيها شعراً واستحسن قافيته فيها. ومن المدن التي هام بها وربطها بوطنه هي قصيدة مجنون طولقة الوطن الأم حيث يقول فيها:

طولقة تغرق في صباة النخيل

والعاشق المجنون في جحيمة يداعب الفراشة

في جفونه ارتعاشة

تغريه بالموت وبالرحيل. (لوصيف، ديوان أعراس الملح، 1988، صفحة 59)

مدينة طولقة فيها نشأ وإليها يعود من كثرة حبه لها وصف نفسه بالعاشق المجنون، ففيها ذكرياته وطفولته مع جيرانه وأحبابه.

يتبين تحلي وحضور المرأة في الأمكنة التي يوظفها في قصائده ويؤكد ذلك في إحدى محاوراته عن سبب تغزله بالمرأة في أشعاره، يقول: "سألني مرة أحد وقال: لماذا تتغزل كثيرا بالمرأة في أشعارك؟ فأجبت على الفور: "أنا جميل أحب الجمال"، فالمرأة في نظري اختزال للطبيعة، وهي شعاع إلهي في الأرض، وهي آية من آيات الوجود، ولذلك كانت في كل العصور مصدر وحي وإلهام للشعراء، وكانت لدى كبار الصوفية المسلمين واسطة للوصول إلى الحب الإلهي (محي الدين ابن عربي، ابن فارض)، وأنا عشقت المرأة منذ وجودي، أحببت أُمي منذ جئت إلى الوجود... ولا زلت أمارس عشقي للمرأة التي أراها جزء من الروح الكونية، ومن هنا ولأسباب أخرى برزت النزعة الصوفية" (سعادة، 2005، صفحة 220).

4. تأنيث المكان في شعر عثمان لوصيف:

تعدد ذكر الأماكن في قصائد عثمان لوصيف في دواوينه المختلفة ذلك لقوة وجزالة ألفاظه ولسحر نسج خيوطه الشعرية، ما أدى إلى إنتاج زخم معرفي هائل يحاول استنطاقه القارئ المثقف لما يحمله من رموز ودلالات غامضة، حيث تناول الشاعر في معجمه الشعري التناس مع القرآن والدين والشعر القديم والحديث والتراث والأساطير والتاريخ والسياسة والجغرافيا وغيرها، وكان للمكان حضور أقوى غير أنه مؤنث وسمته تكرار التأنيث فيه تعددت في قصائده فما سبب ذلك يا ترى؟ وسنبين من خلال هذا الجدول تعدد الأمكنة في دواوينه الشعرية.

الجدول 1: تعدد توظيف الأمكنة في دواوين الشاعر عثمان لوصيف.

الديوان	القصيدة
الكتابة بالنار	إعلان عن هوية، آه يا جراح، الطوفان
شبق الياسمين	فلسطين، باتنة، كالبحر أنت، الجبال، الأوراسية
اللؤلؤة	سطيف، عرس البيضاء، ورقلة، المشنقة، طولقة الشوارع، الممرات، الأغواط البلب، جفاف، ياسمينية
أبجديات	الجلفة، تيزي وزو
زنجبيل	النيل، بين اثنين، غروب الذرة، القطن، الشاعر والزورق، الغاب، مياه، قهوة
غرداية	غرداية
براءة	وهران، الصاعقة
الإرهاصات	المعبد، باتنة، الجنية الساحرة، طولقة، نشوة التحدي، عروسين كنا، وقفة أمام البحر.
أول الجنون	بجاية

المصدر: (خرفي، 2002، صفحة 292)

ومن هنا نرى أن الشاعر عثمان لوصيف عمد على ذكر أماكن جزائرية وأخرى عربية وأخرى أماكن طبيعية، فأما الأماكن الجزائرية مثل: بجاية سطيف ورقلة باتنة طولقة وغيرها، أما الأماكن العربية مثل: فلسطين، والأماكن الطبيعية مثل: البحار، الجبال.

وفي هذا الصدد يقول عثمان لوصيف في حوار له: "شعر المدن الجزائرية يدخل ضمن الشعر الوطني، مع تفاوت واضح بين هذه القصائد لكنني كنت دائما أحاول أن أكتب بطريقة جديدة، ولعل المرأة/الرمز كانت دائما حاضرة بجمالها وجلالها، وكثيرا ما كنت أعنون القصيدة باسم المدينة التي كتبت عنها، وهكذا تجد مثل هذه العناوين: باتنة، وهران، سطيف، الجلفة، تيزي وزو، ورقلة... وليس معنى ذلك أنني أحب المدن التي كتبت عنها فقط ولم تتملكن المدن الأخرى، إنما من حسن حظي أو من حسن حظ هذه المدن الأخرى التي ألهمتي أن أكتب فكتبت" (سعادة، 2005، صفحة 222). ومن خلال قوله هذا نجد أنه يصريح أن رمز المرأة حاضر بجمالها في قصائد المدن، فهل كان توظيف الأنثى أو المرأة في أماكن القصائد بحثا عن المكانة أو كان بحثا عن الحبيبة أو كان هدفه الاستعانة بالتراث الصوفي القديم؟

1.4 المكانة:

عند العودة إلى صفحتنا السابقة التي تعرف المكان لغة وجدنا أن المكان مرتبط بالمكانة وتوحي إليه في بعض الأحيان، فلا مكان بلا مكانة ومنزلة وقدر لذلك كان الاغتراب عن الوطن والبعد عنه يشعر المغترب بالذل والهوان والشوق والحنين، إذ يشعر أن لا مكانة في بلد غير بلده وأرض غير أرضه، إذ قيل لأعرابي: "ما الذلة؟ فقال: التنقل في البلدان والتنحي عن الأوطان" (الجاحظ، 1982، صفحة 39)، وربما هذا هو السر الذي جعل عثمان لوصيف يؤنث المكان بحثا عن المكانة وذلك بتوظيف رموز المرأة وبزيادة تاء التأنيث لبيان أهميتها، "أليست تاء التأنيث التي تؤنث المكان ترتقي بقيمته إلى مرتبة المكانة" (وادي، 2013). وهذا ما سنراه في قصائده حيث يقول في قصيدة سطيف:

دخلت سطيف على سعة من نخيل الجنوب

ففاجأني الطل قبل الأوان

مشيت على اللوز

كانت شوارعها تتألق والواجهات تشف

وقفت أغني فحفت بي الفتيات

رأيت عيونك في كل وجه
هممت... فطرت بعيد مع الأغنيات
وحومت فوق الهضاب
على نفق سجادة مرهفة
بكيت وأدركني اليأس
قلت أعود إلى النخل
لكنني حين ناديت عبر الدروب:
سطيف سطيف !
وجدتك بين يدي بثوب الزفاف
فأيقنت أن الغرام سطيف
وأن العروس سطيف. (لوصيف، ديوان اللؤلؤة، 1997، صفحة 11)

فمن خلال هذه القصيدة نجد أن الشاعر استخدم ألفاظ مؤنثة مرتبطة بالمرأة هي (عيونك، وجدتك، ثوب الزفاف، العروس)، كما أنه يئس من البحث عن سطيف ولكن يأسه لم يدم طويلا حينما نادى عليها فأتته بثوب الزفاف، فكل هذه الصور الجمالية التي يوظفها الشاعر توحى إلى حبه للمدينة وبحثه عن المكانة في هذه المدينة لكنه سرعان ما حصل عليها وتم اللقاء.

كذلك نرى تأنيث المكان والبحث عن الراحة والمنزلة في قصيدة باتنة، والمتتبع لدواوين عثمان لوصيف يجد أن مدينة باتنة تعدد ذكرها في عدة دواوين لما لها من حب في قلب الشاعر، وتعدد ذكرها هذا راجع إلى طول مكوثه فيها عندما كان يدرس في جامعته يقول:

سألوني عن هوى باتنة.... فقلت نار في ضلوعي تستعر
هي في القلب وعيناها على... صفحة الشعر مرايا وصور
فاحضنيني إني محترق... وامسحي عن جبھتي ملح السفر! (لوصيف، ديوان الإرهاصات، 1997، صفحة 32).

2.4 الاستعانة بتراث الصوفية:

كان شيخ الصوفية محي الدين بن عربي من أكثر الصوفية الذين اهتموا بقدر المرأة واعترفوا به وقد أشار لفضل المرأة وأنوثتها في رسالته الشهيرة المعنونة برسالة " لا يعول عليه " حيث يقول عن تأنيث

المكان: "المكان إذا لم يؤنث لا يعول عليه" (ابن عربي، 1971، صفحة 198)، ومن هنا جاءت نظرة الصوفية عن المكان فبدون المرأة يفقد المكان مكانته وقيمته، فكما هو معروف على الصوفية أنهم استخدموا عدة رموز في قصائدهم لكن من بين الرموز الأكثر حضوراً هما رمز الخمرة والمرأة؛ لأن لهما علاقة بالوجود وبالتغزل بالذات الإلهية، "فالمرأة هي الحياة في قدسها السامي، وهي الحياة في كل آوان، وهي الحياة في كل وجود، حضور متعدد الأبعاد" (عصفور، 2016، صفحة 90)، كذلك فإن رؤيتهم للأرض تتجلى بتوظيف المرأة وحبها "لا نحب الأرض إلا من خلال المرأة والأرض بدورها تحبنا" (سعيد، دت، صفحة 113)، ومن هنا سعى عثمان لوصيف إلى الاستعانة من تراث الصوفية في أشعاره وتوظيف رمز المرأة في وصف الأمكنة باعتبارها ملهمة العديد من الشعراء والأدباء والصوفية فالمكان بدون امرأة كم لا وجود له.

ونرى هذا متجلياً في قصيدته تلك صوفيتي يقول فيها:

جمالك يغمر كل الوجود

أمسك في روعة الفجر

أسمع صوتك بين النجوم

وألمس ريحك في كل زنبقة تتفتح

أو غيمة شاردة

ما يحررني من نواميس سحرك

يا امرأة من طقوس البدايات؟

تبتسمين فترقص نحلة قلبي. (لوصيف، ديوان قالت الورد، 2000، صفحة 45)

من هنا نلاحظ أن الشاعر مزج في قصيدته هذه بين المرأة والطبيعة، وأسقط صفاتها عليها ورمز

إليها بالوجود الذي يتجلى مع الجمال الإلهي.

ومن القصائد أيضاً التي لعبت الأنوثة فيها قصيدة عرس البيضاء حيث يقول:

يا نحلة الضوء والنوء

يا زهرة الثلج عند الخليج

ويا امرأة تنتمي فيقال الجزائر

لا زال خصرك يمتد في شهوة الأرض

لا زال شعرك يرحل في ملكوت الندى

وأنا المتوحد بالملح والقمح

لا زلت أرتشف التوت من شفيتك

وأسكب فوق الشواطئ. (لوصيف، ديوان اللؤلؤة، 1997، صفحة 31)

ومن هذه القصيدة نراه يوظف الأفعال التي تصف المرأة وتبرز أنوثتها من خلال بعض المفردات

(زهرة، امرأة، حصرك، شفيتك)، لبيان جمال الجزائر.

5. خاتمة:

في ختام دراستنا هذه والموسومة بشعرية تأنيث المكان في شعر عثمان لوصيف توصلنا إلى جملة من

النتائج نعرضها فيما يلي:

➤ ارتبطت الشعرية بجماليات النص الأدبي كما اهتمت برموز المكان وبيان جمالياته من خلال تعدد دلالاته.

➤ تعدد توظيف المكان لدى الشعراء القدامى والمحدثين وكان الشاعر عثمان لوصيف من ضمن هؤلاء الشعراء الذين أعطوا للمكان نظرة خاصة تفرد بها وزادت في جمالية قصائده في تجربته الشعرية.

➤ تجلت المرأة في قصائد العرب قديما بوصف محاسنها ومفاتنها وبعض أعضائها الجسدية، لكن جاء بعض الشعر الحديث والمعاصر مغايرا عن وصف المرأة للشعراء القدامى، فأصبح يرمز لها بالصفاء والنقاء والإخلاص، كما أصبحت تحمل رموز لأشياء جامدة وتكسبها صفة الحياة والحركة، فتحمل النصوص الأدبية والشعرية غموضا يزيد من شغف القارئ في عملية البحث والكشف عما تحيله لغة هذه النصوص.

➤ استلهم الشاعر من المرأة وأنوثتها خيوط قصائده فنسجها في أحلى حلة زادت من روعتها، عن طريق توحيد بين العناصر الجمالية للمرأة والعناصر الجمالية للمكان.

➤ سعى الشاعر عثمان لوصيف إلى تأنيث المكان بحثا عن المكانة والمنزلة في المدن والأوطان وإخلاصا للصوفية المسلمون والاستلهام من تراثهم بالعناية بالمرأة والأنثى.

➤ توظيف أسماء المدن في عناوين قصائده وبين ثنايا الأبيات ليثبت حب الشاعر لوطنه وانحلاله والتماهي فيه.

6. قائمة المراجع:

- ابن عربي، محي الدين. (1971). الرسائل. (تحر: محمد عبد الكريم النمري) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور، جمال الدين. (1999). لسان العرب ج3. لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- إسماعيل، عز الدين. (دت). الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية. ط3، مصر: دار الفكر العربي.
- باشلار، غاستون. (1984). جماليات المكان. (تر: غالب هلسا)، (ط1)، بيروت، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- بن ذريل، عدنان. (2000). النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق. دمشق: اتحاد كتاب العرب.
- تودروف، تزفيطان. (1990). الشعرية. (تر: شكري المبخوت، و رجاء بن سلامة)، (ط2)، المغرب: دار توبقال للنشر.
- الجاحظ، عمرو بن عثمان. (1982). الحنين إلى الأوطان. (ط2)، لبنان: دار الرائد العربي.
- خرفي، محمد الصالح. (2002). سيمياء المكان في شعر عثمان لوصيف. الملتقى الوطني الثاني: السيمياء والنص الأدبي (الصفحات 281-306). بسكرة، الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة.
- سعادة، لعل. (2005). سيميائية العنوان في شعر عثمان لوصيف. رسالة ماجستير. قسم الأدب العربي، الجزائر: جامعة محمد خيضر بسكرة.
- سعيد، علي أحمد. (دت). الصوفية والسيرالية. (ط3)، بيروت، لبنان: دار الساقبي.
- صالح، علي عزيز. (1971). شعرية النص عند الجواهري "الإيقاع والمضمون واللغة". لبنان: دار الكتب العلمية.
- عثمان، اعتدال. (1986). جماليات المكان. مجلة الأقلام (العدد 2)، صفحة 76.
- عصفور، جابر. (2016). تحولات شعرية. القاهرة، مصر: الهيئة العامة للكتاب.

- عطوان، حسين. (1970). مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي. مصر: دار المعارف.
- لوصيف، عثمان. (1986). ديوان شبق الياسمين. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- لوصيف، عثمان. (1988). ديوان أعراس الملح. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- لوصيف، عثمان. (1997). ديوان الإرهاصات. (ط1)، الجزائر: دار هومة.
- لوصيف، عثمان. (1997). ديوان اللؤلؤة. (ط1)، الجزائر: دار هومة.
- لوصيف، عثمان. (1997). ديوان براءة شعر. الجزائر: دار هومة.
- لوصيف، عثمان. (2000). ديوان قالت الوردة. الجزائر: دار هومة.
- وادي، فاروق. (2013, 07 12). تأنيث المكان. تاريخ الاسترداد 07 19, 2020، من

موقع الأيام: [http://www.al-](http://www.al-ayyam.ps/ar_page.php?id=c6e153ay208540986Yc6e153a)

[ayyam.ps/ar_page.php?id=c6e153ay208540986Yc6e153a](http://www.al-ayyam.ps/ar_page.php?id=c6e153ay208540986Yc6e153a)